كنوز الأجداد

- ١٩ -

ابن المقفع

١٤٢ أو ١٤٣

هو عبد الله بن المقفع كان اسمه قبل الاسلام روزبه واسم والده المبارك ويكنى أبا عمرو دعي أبوه بابن المقفع لأنه مدّ يده فيما قيل الى أموال السلطان فضربه الحجاج بن يوسف ضرباً مبرّحاً حتى تقفعت يده أي تشنجت . ولد عبد الله على الأغلب في مدينة جور على عشرين فرسخاً من شيراز واليها ينسب الورد الجوري . ولم تعلم سنة ولادته ويحتمل انها كانت في عشر التسعين . وتثقف ثقافة فارسية مجوسية في بيته ثم انتقل به أبوه الى البصرة وأخذ الفصاحة عن ابي جاموس ثور بن يزيد الاعرابي . وحرص المبارك على تأديب ولده فكان يجمع له العلماء فأخذ عنهم وبعد ان أحكم أصول الاسلام وقع في نفسه أن يدين به فأسلم وحسن اسلامه .

وتخرج بالكتابة في دواوين بعض الأمراء وكانوا ضموه الى جملتهم ليتولى كتابة أسرارهم فجاء بذكائه فرداً في صناعته ، وكذلك كان في أخلاقه وصحة عهده وكبر نفسه يذكرون له من ذلك صفات قلما اتفقت لأحد من معاصريه وهذا مما دعا عظماء الملة الى الاعجاب به . وكان اذا أراد الشعر صنعه وقال عن نفسه « الذي أرضاه لا يجيئني والذي يجيئني لا أرضاه » وهو في البيان والكتابة آية من الآيات ترجم كثيراً عن الفهلوية ومما نقل كتاب « كليلة ودمنة » و « خداينامه » و « آبين نامه » و « مزدك » و « التاج » وكتاب « الكيكيين »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

في سير ملوك الفرس ، لم يفته الينا منها الا كليلة ودمنة ، ومن تآليفه « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » و « اليتيمة » وعدد من الرسائل المفردات اللواتي لا نظير لها ولا أشباه ، وقد ظفرنا له برسائل صغيرة ومن أهمها رسالة الصحابة ويتيمة ثانية نشرناها في « رسائل البلغاء » وترجمنا له في كتابنا « أمراء البيان » ترجمة حافلة .

لم يعرف لمتقدم ولا لمتأخر ان نقل الى اللسان العربي شيئاً في الأدب والعلم لاتحسُّ فيه أثر اللغة المنقول عنها الا ابن المقفع ، بذَّ البلغاء في الترجمة والتأليف وقيل ان كتاب كليلة مترجم والمعقول ان اكثره تأليف وبعضه محتذى عن الفارسية القديمة . وسر تفرده ببلاغته ابتعاده عن الوحشي من الكلام وتعلقه بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة . قال : البلاغة اذا سمعها الجاهل ظن انه يحسن مثلها . وقد سئل ما البلاغة فقال : اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الاشارة ، ومنها ما كاد يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون في الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون خطباً ، ومنها ما يكون رسائل ، فعامة هذه الأبواب الوحي فيها والاشارة الى المعنى ، والايجاز هو البلاغة .

راجت كتب ابن المقفع في الحكم والاصلاح اي رواج والسبب في رواج كليلة ودمنة ان الخاصة والعامة تشترك في تقديره والانتفاع به وقد وضع قواعد كان أكثرها من بنات أفكاره مباشرة مثل قوله مثلاً : انظر في حال من تريده لاخائك فان كان من اخوان الدين فليكن فقيهاً ليس بمراء ولا حريص وان كان من اخوان الدنيا فليكن حراً ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير ولا مشنوع ، فان الجاهل أهل لأن يهرب منه أبواه ، والكذاب لا يكون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أخًا صادقًا ، لأن الكذب الذي يجري على لسانه انما هو من فضل كذب قلبه وانما سُمي الصديق من الصدق وقد يُتهم صدق القلب وان صدق اللسان ، فكيف اذا ظهر الكذب على اللسان وان الشرير يكسبك العدو ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة وان المشنوع شانع نفسه .

وكان ولوعه بالاسلام وحكمته عدل ولوعه بالعرب وعظمتهم وقد سئل عن الأمم المشهورة لعهده ، فأعطاها قسطها من الوصف الحق وقال في العرب : ان العرب جاهليتهم واسلامهم حكمت على غير مثال مُثِّل لها وآثار أثرت : أصحاب ابل وغنم وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسّن ما شاء فيَحْسُن ، ويقبح ما شاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم همهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ؛ فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم في أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر ، على الخير فيهم ولهم . فقال : « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خصم اه . ومن تأدب بأدب أمة أحبها ومن اندمج في جنس ربما كان قومه الجدد أحب الى قلبه من أهل جيله آنفًا وشأنه في ذلك شأن من يفاضل بماله المكسوب أكثر من ماله الموهوب لأن مكسوبه تاه بكده وموهوبه أتاه بلا كبير عناء .

وبحق ما قال محمد بن سلام في ابن المقفع : سمعت مشايخنا يقولون لم يكن لعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن احمد ولا أجمع ولا كان في العجم ذكى من ابن المقفع ولا أجمع . وقد قال فيه من ترجموا له انه كان سريًا سخيًا يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج اليه . وقالوا : انه لم يبق في لاسلام من أهل فارس شريف يذكر الا أن يكون عبد الله بن المقفع والفضل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ابن سهيل . وله في باب الكرم حكايات بذّ فيها أجواد العرب والعجم ، وذكر أصحاب المحاضرات انه كان من عشاق الطرب والجمال يجتمع وبعض أصحابه الى القينات ويطرب ويفضل عليهن ويتلطف ، وكان يجري على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين خمسمائة درهم الى الفين في كل شهر وله في باب المكارم أمور عظيمة . قيل انه قد أفاد مالاً لما كان يكتب لابن هبيرة على كرمان والمعقول أن يكون أبوه من المموّلين .

ومن حكمه وهو مما عمل به : لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجده من لذة دنياه ، وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصَرْه بزوالها ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على نفسه أن لا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع بها حاجته الى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها الى اخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في أمره ، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحلّ ويَجْمُل . فان هذه الساعات عون على الساعات الأخيرة وان استجمام القلوب وتودعها زيادة قوة لها وفضل بلغة ، وعلى العاقل ان لا يكون راغباً الا في احدى ثلاث خصال : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة في غير محرم .

ومن حكمه في رغبات الذواقين : « اعلم ان من أوقع الأمور في الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأضرها بالعقل وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء . ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك بأجم ما عنده وتطمح عيناه الى ما ليس عنده منهن ، وانما النساء أشباه وما يرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخدعة ، بل ما يرغب عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق اليه نفسه ، وانما المترغب عما في رحله منهن الى ما في رحال الناس كالمترغب عن طعام بيته الى ما في بيوت الناس ، بل النساء أشبه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من الطعام بالطعام ، وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء .

« ومن العجيب ان الرجل الذي لا بأس في لبه ، يرى المرأة من بعيد ملتفة في ثيابها ، فيصور لها في قلبه الحسن والجمال ، حتى تعلق بها نفسه ، من غير رؤية ولا خبر مخبر ، ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدمّ الدمامة ، فلا يعظه ذلك عن أمثالها ، ولا يزال مشغوفاً بما لم يذق حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأناً غير شأن ما ذاقه ، وهذا هو الحمق والشقاء ومن لم يحم نفسه ويَظْلِفها ويحلأُها عن الطعام والشراب والنساء في بعض ساعات شهوته وقدرته كان ايسر ما يصيبه من وبال أمره انقطاع تلك اللذات عنه ، بخمود نار شهوته ، وضعف عوامل جسده ، وقلّ من تجد الا مخادعاً لنفسه في أمر جسده عند الطعام والشراب والحِمْيَة والداء وفي أمر مروءته عند الأهواء والشهوات وفي أمر دينه عند الريبة والشبهة والطمع » .

وقال : « اياك ومشاورة النساء فان رأيهن الى أفن ، وعزمهن الى وَهْن ، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك اياهن ، فان شدة الحجاب خير لك من الارتياب ، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا تثق به عليهن ، فان استطعت ان لا يعرفن غيرك فافعل ، ولا تملكن امرأة من الأمر ما جاوز نفسها ، فان ذلك أنعم لحالها ، وأرضى لبالها ، وأدوم لجمالها ، وانما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ، فلا تعدُ بكرامتها نفسها ، ولا تُعطها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الخلوة مع النساء فيَمَلْنَكَ وتَمَلَّهن ، واستبق من نفسك بقية ، فان امساكك عنهن وهن يُردنك باقتدار ، خير من ان يهجمن عليك على انكسار ، واياك والتغاير في غير موضع غيرة ، فان ذلك يدعو الصحيحة منهن الى السقم » .

وقال : « إني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما أعظمه عندي صغر الدنيا في عينه ، كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما لا يجد ، ولا يُكثر اذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا تدعوه اليه مؤونة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم الا على ثقة او منفعة . وكان أكثر دهره صامتاً ، فاذا قال بذَّ القائلين ، وكان يرى متضعفاً مستضعفاً فاذا جدَّ الجد فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل في دعوى ولا يشترك في مِراء ، ولا يُدلي بحجة ، حتى يجد قاضياً فيها وشهوداً عدولاً ، وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله ، حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعاً الا الى من يرجو عنده البرء ، ولا يصحب الا من يرجو عنده النصيحة ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى ، ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولي ، ولا يخص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته ، فعليك بهذه الأخلاق ان أطقت ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع وبالله التوفيق » .

وقال وأبدع : « واعلم ان حسن الكلام لا يتم الا بحسن العمل وان المريض الذي قد علم دواء مرضه ان لم يتداوَ به لم يُغن علمه به شيئاً ، ولم يجد لدائه راحة ولا خفة ، فاستعمل رأيك ولا تحزن لقلة المال ، فان الرجل ذا المروءة قد يكرم على غير مال ، كالأسد الذي يُهاب وان كان رابضاً ، والغني الذي لا مروءة له يهان وان كان كثير المال كالكلب لا يُحفل به وان طوّق وخلخل بالذهب ، فلا تكبرنَّ عليك غربتك فان العاقل لا غربة له كالأسد الذي لا ينقلب الا معه قوته ، فلتحسن تعهدك لنفسك ، فانك اذا فعلت ذلك جاء الخير يطلبك كما يطلب الماء انحداره ، وانما جعل الفضل للحازم البصير ، وأما الكسلان المتردد فان الفضل لا يصحبه ، كما أن المرأة الشابة لا تطيب لها صحبة الشيخ الهرم ، وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء : ظل الغمامة في الصيف ، وخِلة الأشرار ، والبناء على غير أساس ، والنبأ الكاذب ، والمال الكثير ، فالعاقل لا يحزن لقلته ولكن ماله وعقله ما قدم من صالح عمله ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فهو واثق بانه لا يسلب ما عمل ، ولا يؤاخذ بشيء لم يعمله ، وهو خليق ان لا يغفل عن أمر آخرته ، فان الموت لا يأتي الا بغتة ليس له وقت معين » ا ه .

ومن رسالته في الصحابة صحابة أمير المؤمنين وهي أشبه بقانون حوى الأنظمة اللازمة لسلامة الملك : « ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الامصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال ، فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يحرمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك من الاختلاف في جوف الكوفة ، فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية اخرى غير انه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم ، يقضي به قضاة جائز امرهم وحكمهم ، مع انه ليس مما ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق الا قد لجّ بهم العجب بما في أيديهم ، والاستخفاف ممن سواهم فأقحمهم ذلك في الأمور التي يَشْنع بها من سمعها من ذوي الألباب أما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنةً سنةً ، حتى يبلغ به ذلك الى ان يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذي يزعم انه سنة واذا سئل عن ذلك لم يستطع ان يقول هُريق فيه دم على عهد رسول الله ﷺ أو أئمة الهدي من بعده . واذا قيل له أي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون ؟ قالوا : فعل ذلك عبد الملك بن مروان او أمير من بعض أولئك الأمراء ، وأما من يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول في الرأي الجسيم من أمر المسلمين قولاً لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وامضائه الحكم عليه ، وهو مقر انه رأي منه لا يحتج بكتاب ولا سنة . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسِيَر المختلفة فترفع اليه في كتاب ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الذي يلهمه الله ويَعْزُم له عليه وينهى عن القضاء بخلافه و كتب بذلك كتابا جامعاً رجونا ان يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً ، ورجونا أن يكون اجتماع السير قربة لاجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم ذلك من امام آخر ، آخر الدهر ان شاء الله » .

لا جرم أن الباحث المدقق يدرك ان ابن المقفع فطر على حرية الرأي وعلى الصدق في القول والعمل وعلى التناهي في المروءة وكان كل أولئك السبب في قتله ، ذلك ان أمير المؤمنين المنصور لما خالف عليه عبد الله بن علي وادعى الخلافة لنفسه همَّ المنصور بقتله فانهزم عبد الله وقصد أخويه سليمان وعيسى في البصرة و كاتب سليمان وعيسى أبا جعفر أن يؤمنه وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن علي فأمره عيسى بعمل نسخة الأمان فعملها ووكدها واحترس من كل تأويل يقع عليه فيها فأنكر المنصور هذه الصيغة الشديدة في الأمان وعهد بقتله الى سفيان بن معاوية وكان يضطغن على ابن المقفع اشياء منها أنه كان يعبث به فيما قيل وقيل ان المنصور كتب لعبد الله بن علي عمه سبعين أماناً كلها يردها عبد الله بن المقفع ويقول له هذا بنتقض عليك ويبطل من مكان كذا وكذا فلما ضجر المنصور كتب الى عامله على البصرة فطلب ابن المقفع فخنق نفسه . وقال بعضهم انه شرب سماً . فكانت أمانة ابن المقفع لمخدومه وصدقه وحريته مما أورده حتفه فمات ميته شريفة كما عاش حياة شريفة .

وبعد فابن المقفع في كل حالاته مجموعة من الكمال المطلق ، اذا أنعمت النظر في حياته لا تدري من أي شيء تعجب فيه أمن علمه أم من أخلاقه ولولا أنه الغاية فيهما ما كتب لكتبه هذا الموقع من القلوب على الأيام . ومهما بلغ الكلام من الفصاحة والبلاغة فالقوالب وحدها لا تفيد كل الفائدة ان لم تحمل معاني جديدة وآراء نافعة ومذاهب في الكلام لا عهد للناس بها ، ونحن لا نحيل من يود الانتفاع بأدب ابن المقفع الا على الأدب الصغير والأدب الكبير واليتيمة والصحابة وهي من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تأليفه التي لم ينقل فيها عن غيره ليتجلى له لأنه فرد الدهر ودرة الأيام . وكل ما خص به ابن المقفع من بيان ما كان مما يستغرب حقيقة لو لم يطبق على نفسه ما دعا اليه من الأخلاق فهو في علمه وعمله سواء وغاية لا يخدع ولا يكذب ولا يموّه ولا يبخل ويعمل الصالحات من دون غرض يتوقعه ويدعو الى الاصلاح ولا غاية له الا رفع شأن جماعة الاسلام . هو روح ندر جداً ظهور مثله في القرون الطويلة وصاحب خطة رشيدة ما حاد عنها قيد أنملة وما أغرم الا بنفع الناس .

التوحيدي

٤١٤

علي بن محمد بن العباس التَوْحيدي نسبة للتوحيد نوع من التمر كان يبيعه ابوه بالعراق ، أو الى التوحيد لقب المعتزلة وكانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد وهو الأرجح . قيل انه شيرازي وقيل نيسابوري وقيل واسطي . وكنيته ابو حيان . ولد في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع أو في أوائل العقد الثالث وجاء بغداد صغيراً . وسواء كان من أصل فارسي أو عربي فليس في ثقافته أثر ظاهر للفارسية يصح للحكم به على نسبه ، قيل انه مات بشيراز سنة ٤١٤

تخرج بالسيرافي والرُّماني بالنحو وبالفقه الشافعي بأبي حامد المَرْوروزي وابي بكر الشافعي وحضر بين سنتي ٣٦١ — ٣٩١ دروس يحيى بن عدي وابي سليمان المنطقي وغيرهما من الفلاسفة مثل ابي الحسن العامري وابي النفيس الرياضي الفيلسوف .

وصفه ياقوت انه كان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ ويشتهي ان ينتظم في سلكه ، فهو شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق أهل الكلام ، ومتكلم المحققين ، وامام البلغاء ، فرد الدنيا الذي لا نظير له ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم في كل فن ، حُفَظة واسع الرواية والدراية . وقال فيه انه كان صوفي السمت والهيئة وانه كان فقيراً صابراً ، وعده السبكي في طبقات الشافعية من المؤرخين .

ولم يكن للتوحيدي مرتزق من السلطان واشتغل زمناً بالوراقة في بغداد . ولما ترامى اليه نبأ مكارم بن العميد والصاحب بن عباد من وزراء آل بُوَيْه في الشرق ، وكانا من حماة الأدب كالوزير المهلبي وسيف الدولة بن حمدان قصدهما في بلدهما فلم يحظ بطائل وكان من الصاحب أن عرض عليه نسخ كتاب في ثلاثين مجلداً . فقال نسخ مثله يأتي على العمر والبصر ، والوراقة كانت موجودة ببغداد . فأخذ الصاحب في نفسه عليه وعاد الى وطنه وهجاهما في كتاب اسماه مثالب الوزيرين أورد فيه حكايات من ثلبهما ومنهـا ما عزاه الى بعض من روى عنهم .

واذا فاتت التوحيدي عوارف ابن العميد وابن عباد فقد أكرمه الوزيران ابن سعدان وابن العارض ، ولابن سعدان الف كتاب الصداقة والصديق ولابن العارض كتاب الامتاع والمؤانسة . وللدُّلجي بشيراز ألف كتاب المحاضرات . وله غير ذلك من الكتب طبع منها الصداقة والصديق والمقابسات وثمرات العلوم . وأهم ما طبع من كتبه كتاب الامتاع والمؤانسة ينم عن مبلغ صاحبه من الأدب والعلم والفلسفة والتاريخ والرواية وفيه تقريع وتقريظ ونقد ولمز ووعظ وارشاد وأسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات باسلوب جديد حوى كل مفيد يدل على شدة تصرفه بالكلام والتلاعب بالآراء والأفكار وهو من نوع الأدب الطريف يدخل عقل المطالع بلا استئذان ويمتعه فيه بكل عجيب .

دون فيه ما دار بينه وبين الوزير ابن العارض في أربعين ليلة عرض فيها لموضوعات جمة في الشعر والكتابه والتفسير والحديث والفلسفة والكلام والملح والمجون والتاريخ والتصوف والطبيعة والحيوان ونفث فيه ـ كما قال ـ كل ما كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في نفسه من جد وهزل وغث وسمين وشاحب ونضير وفكاهة وطيب وأدب واحتجاج واعتذار واعتلال واستدلال وأشياء من طريف المالحة على وجه قل أن حمل كتاب للقدماء في الأدب مثل هذه الأبحاث الطريفة فان أكثر كتب القدماء تقول ينقل المتأخر عن المتقدم لا يعزون على الأكثر الى المصدر المأخوذ منه وكتاب الامتاع يحوي ما تحوي كتب القدماء ويكثر فيه الجديد الذي لم يسبق اليه . وأما الطريف حقاً فهو مجالس العلماء ومحاضرات الحكماء والحكم على المشهورين منهم ، صورهم صورة غريبة فصوّر بهم عصرهم بحسنه وقبحه .

وكان الوزير ابن العارض الذي جرت هذه الفوائد في مجلسه ، على ما ظهر من أسئلته وأجوبته في تلك الأسمار على جانب من العلم والفهم ومعرفة بالسياسة ، وكان الى هذا يعرف ضعف صاحبه الملك ويخافه فقال عن نفسه : انه وصل الى المجلس مرة فقيل له أعدت الخلعة فالبسها على الطائر الأسعد ، فقال : أفعل وفي تذكرتي أشياء لا بد عن ذكرها وعرضها ، فقال : يتقدم بكذا وكذا ويفعل كذا وكذا فقال صاحبه : عندي جميع ذلك امض هذا كله واصنع فيه ما ترى وما فوق يدك يد ولا عليك لأحد اعتراض . فانقلب الوزير الى زاوية في الحجرة وأخذ تتحدر دموعه ، ويعلو شهيقه ، ويتوالى نشيجه . فسئل الوزير عن سبب بكائه فقال : اني عرضت على صاحبي تذكرة مشتملة على أشياء مختلفة فأمضاها كلها ولم يناظرني في شيء منها ولا زادني شيئاً فيها ولا ناظرني عليها ولعلي قد بلوته بها ، وأخفيت مغزاي في ضمنها ، فخيّل اليّ بهذه الحالة ان غيري يقف موقفي فيقول فيّ قولاً مزخرفاً وينسب اليّ أمراً مزيفاً فيمضي ذلك أيضاً له كما أمضاه لي . وصدق الوزير فان الملك لم يلبث أن قتله بوشاية منافس له .

سأل التوحيدي مسامره الوزير من أول ليلة ان يأذن له في كاف المخاطبة وتاء المواجهة حتى يتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض ، ويركب جدد القول من غير تقية ولا تحاش ولا محاباة فقال له : لك ذلك وأنت المأذون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فيه وكذلك غيرك وقال : ان الله تعالى على علو شأنه ، وبسطة ملكه ، وقدرته على جميع خلقه ، يواجه بالتاء والكاف ، ولو كان بالكناية بالهاء رفعة وجلالة وقدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحق بذلك ومقدماً فيه ، وكذلك رسول الله ﷺ والأنبياء قبله عليهم السلام وأصحابه رضي الله عنهم والتابعون لهم باحسان رحمة الله عليهم . وهكذا الخلفاء فقد كان يقال للخليفة : يا أمير المؤمنين أعزك الله ، ويا عمر أصلحك الله ، وما عاب هذا أحد وما أنف منه حسيب ولا نسيب ولا أباه كبير ولا شريف . واني لأعجب من قوم يرغبون عن هذا أو شبهه ويحسبون ان في ذلك ضعة أو نقيصة أو خطأ او زراية ، وأظن ذلك لعجزهم وفسولتهم ، وما يجدونه من الغضاضة في أنفسهم وقال : هيهات لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخيلاء ، ومن مقابح الزهو والكبرياء .

وبالتقليل الذي نجا من كتب ابي حيان استدللنا انه كان متصوفاً وفيلسوفاً ، آية في العلوم المعادية والعلوم المعاشية لا يتلكأ في الأخذ من كل علم ولا يتعفف من الطعن فيمن لا ترضيه طريقتهم ، وربما سجل لبعضهم شيئاً من الهنات ، وأغفل كثيراً من حسناتهم ، وبهذا كثر خصومه فخاصموه في علمه وفي رزقه وهو النابغة الذي يمضي القرن والقرنان ولا ينبغ مثله في تفكيره .

أضاق ابو حيان في آخر عمره فأحرق كتبه سنة اربعمائة فقال لمن عذله على فعلته : ثم اعلم ، علمك الله الخير ، ان هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته ، فأما ما كان سراً فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً ، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً ، على أني جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ، ومدّ الجاه عندهم فحرمت ذلك كله ... ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه اني فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً منيباً ، فشق عليّ ان أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضي اذا نظروا فيها ويشمتون بسهوي وغلطي اذا تصفحوها ، ويتراءون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نقصي وعيبي من أجلها ، فان قلت ولمَ تَسِمهم بسوء الظن ، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب ، فجوابي لك ان عياني منهم في الحياة ، هو الذي حقق ظني بهم بعد الممات ، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صحّ لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من انسان منهم حِفاظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في اوقات كثيرة الى أكل الخَضِر في الصحراء ، والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين والمروءة ، والى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، والى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم وأحوال الزمان بادية لعينيك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلته بخاف عليك ، مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرغك ...

قال والله يا سيدي لو لم أتعظ الا بمن فقدته من الاخوان والاخدان ، في هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى ، فكيف بمن كانت العين تقرّ بهم ، والنفس تستنير بقربهم ، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والريّ وما والى هذه المواضع ، وتواتر اليّ نعيّهم ، واشتدت الواعية بهم ، فهل أنا إلا من عنصرهم ، وهل لي محيد عن مصيرهم ... وماذا أقول وسامعي يصدق أن زماناً احوج مثلي الى ما بلغك ، لزمان تدمع له العين حزناً وأسىً ، ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوىً ، وضنىً وشجىً ، وما يصنع بما كان ، وحدث وبان ، ان احتجت الى العلم في خاصة نفسي فقليل ، والله تعالى شاف كاف ، وان احتجت اليه للناس ، ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس ، الى ان تفنى الأنفاس بعد الأنفاس ... فلم تُغْنِ عيني ، أيدك الله ، بعد هذا بالحبر والورق والجلد ، والقراءة والمقابلة والتصحيح ، وبالسواد والبياض ، وهل أدرك السلف في الدين الدرجات العلى الا بالعمل الصالح واخلاص المعتقد والزهد الغالب في كل ما راق من الدنيا وخدع بالزبرج وهوى بصاحبه الى الهبوط . وهل وصل الحكماء والقدماء الى السعادة العظمى الا بالاقتصاد في السعي والا بالرضى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

باليسور ، والا يبذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم . وختم كتابه بقوله : « على اني لو علمت في اي حال غلب على ما فعلته ، وعند اي مرض ؛ وعلى أي عسرة وفاقة ، لعرفت من عذري أضعاف ماأبديته ، واحتججت لي بأكثر مانشرته وطويته .

بلغ التشاؤم أقصى حده من نفسه فأتى ما أتى من احراق كتبه وهو في عشر التسعين وقد أدقعه الفقر واستولى عليه اليأس ، وغلبت عليه السوبداء . ونفس عظيمة كنفس التوحيدي لم تحقق الأيام أطماعها وفشل في مادياته وهي السأم الى معنوياته لا بد انه عدم اتزانه في شيخوخته ، والطموح الى العلى كان متجليًا فيه في الكهولة وانقلب في الشيخوخة الى قنوط وزاده ماناله من أعدائه ومنهم من كان هو السبب الأول في استجلاب عداوتهم بما وصفهم به في كتبه من النقائص وما أرى انه سلم من لسانه الا أساتذته كعيسى الرماني وابي سليمان المنطقي ويحيى بن عدي وغيرهم اما من عداهم فذكر مساويهم على الغالب وما جنح لذكر محاسنهم مع انهم كانوا يعدون شيئًا في عصرهم ومصرهم .

قالوا انه كان قليل الرضى عند الاساءة اليه والاحسان ، الذم شانه والثلب دكانه ، يشتكي صرف زمانه ، ويبكي في تضاعيفه على حرمانه وقد لازمه أستاذه السيرافي يومًا وهو ينقل ذم أعرابي بقوله : « تأبى الا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس » فأجاب : « أدام الله الأستاذ ، شغل كل انسان بما هو مبتلى به مدفوع اليه » .

أما اتهام بعض الأردياء الأغبياء لشيخنا التوحيدي بالزندقة فهي تهمة ألصقت بأكثر من ظهر التجدد في أفكارهم وآرائهم وما خلا قرن من قرون الاسلام من كثيرين اتهموا بما هم منه أبرياء ومنهم من عذبوا أو قتلوا ومنهم عاشوا مشردين بعيدين عن عيالهم وأهلهم وعشيرتهم وأوطانهم وكان حظهم من الكآبة والبؤس غير قليل ، ولو كتب للحكومات أن تحسن سياستهم لأتت على أيديهم خيرات جسيمة للعلم والعقل والمدنية . « وصفه صاحب تاريخ بغداد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وصاحب معجم الأدباء بأنه كان يتأله أي يتنسك ويتعبد والناس على ثقة من دينه وصحة عقيدته » .

يتجلى النبوغ وسعة الادراك وفرط التجدد في كتب التوحيدي وكتبه من الأسفار التي يود الناظر فيها أن يعود الى قراءتها مرات فتنجلي له أمور ما انجلت له في قراءتها أول مرة . هكذا كان في المقابسات وهي وصف مجالس العلماء ولا سيما أحاديث استاذه ابي سليمان المنطقي محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني ، ذكر فيها بعض ما وقع اليه من مفاوضات علماء مشهورين كانوا في بغداد يختلفون الى مجلس استاذه ومنه أكثر مروياته فيذاكرون في موضوعات شتى في الفلسفة وما وراء الطبيعه والأدب وأكثرها على طريقة السؤال والجواب وكان فيهم المجوسي والصابئ اليهودي واليعقوبي والنسطوري والملحد والمعتزلي والشافعي والشيعي .

ذكر في كتاب الصداقة والصديق مايتصل بالوفاق والخلاف والهجر والصلة والعتب والرضا والمذق والاخلاص والرياء والنفاق ، والحيلة والخداع ، والاستقامة والالتواء ، والاستكانة والاحتجاج والاعتذار . قال ولو أردنا ان نجمع ما قال كل ناظم في شعره ، وكل ناثر من لفظه لكان ذلك عسراً بل متعذراً فان أنفاس الناس في هذا الباب طويلة وما من احد الا وله فى هذا الفن حصة ، لأنه لا يخلو احد من جار او معامل او حميم او صاحب او رفيق او سكن او حبيب او صديق او اليف او قريب او بعيد او ولي او خليط كما لا يخلو أيضاً من عدو او كاشح او مداج او مكاشف او حاسد او شامت او منافق او مؤذ او منابذ او معاند او مزل او مضل او مغل ...

قال : فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرافق ومشفق ، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى الى جنبي من يصلي معي ، فان اتفق فبقال او عصار ، او نداف او قصاب ومن اذا وقف الى جانبي أسدرني بصنانه ، وأسكرني بنتنه ، فقد امسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخُلق ، مستأنساً بالوحشة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة محتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ...

ورسالته ثمرات العلوم كتبها لقوم لم يفهموا مقصده من العلم وتأولوا كلامه فجبههم بما كتب وأجاد . قال فيها : ولعمري ما زال الناس يعتادون التقاذف والتقارف ، ولكن كانوا يرون التساعف والتناصف ، ولا يتناسون بينهم التعاون والتوازر والترادف والتناصر ، والذي هاجني لهذه الشكوى ، واحوجني الى هذه الدعوى قول من قال منكم : ليس للمنطق مدخل في الفقه ، ولا للفلسفة اتصال بالدين ، ولا للحكمة تأثير في الأحكام ، وهذا كلام من لو انعم النظر ، واستقصى الحال ، لوقف على ما عليه فيه ، وعرف ما له منه ، فكان يستبدل بالخلاف وفاقاً ، وبالمنازعة خلاقاً ، عاب هذا الرجل المنطق وهجن طريقة الأوائل ، وزرى على الحكمة ، وفيَّل رأي الناظر فيها ، وقبح اختيار الباحث عنها ؛ وهذا كله ان لم يكن قلة سوء تحصيل ، فانه يوشك أن يكون ضيق عطن ، وحرج صدر ، ومجازفةً في القول ، وانحرافاً عن الصواب .

وفي الحق ان كتابه الامتاع والمؤانسة أمتع كتبه وأجمعها للفوائد وقد حلَّ فيه مشكلات عظيمة منها القول في رسائل اخوان الصفا قال : « سأل الوزير ابا حيان التوحيدي في حدود سنة ٣٧٢ عن اخوان الصفا بقوله : اني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً يريبني ، ومذهباً لا عهد لي به ، وكناية عما لا احققه ، واشارة الى ما لا يتوضح شيء منه ، يذكر الحروف ويذكر النقط ، ويزعم ان الباء لم تنقط من تحت واحدة الا لسبب والتاء لم تنقط من فوق اثنتين الا لعلة ، والألف لم تعجم الا لغرض وأشباه هذا . واشهد منه في عُرض ذلك دعوى يتعاظم بها ، وينتفخ بذكرها ، فما حديثه وما شأنه وما دخلته ؟ فقد بلغني يا ابا حيان انك تغشاه وتجلس اليه ، وتكثر عنده ، ولك معه نوادر معجبة ، ومن طالت عشرته لانسان صدقت خبرته ، وامكن اطلاعه على مستكن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رأيه ، وخافي مذهبه ، قلت : أيها الوزير ، انت الذي تعرفه قبلي قديمًا وحديثًا بالاختبار والاستخدام ، وله منك الامرة القديمة ، والنسبة المعروفة ، فقال : دع هذا وصفه له ، فقلت : هناك ذكاء غالب ، وذهن وقاد ، ومتسع في قول النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة ، وحفظ أيام الناس ، وسماع المقالات ، وتبصر في الآراء والديانات ، وتصرف في كل فن اما بالشدو الموهم ، واما بالتوسط المفهم ، واما بالتناهي المفحم ، قال : فعلى هذا ما مذهبه ؟ قلت : لا ينسب الى شيء ولا يعرف برهط ، لجيشانه بكل شيء ، وغليانه بكل باب ، ولاختلاف مايبدو من بسطته ببيانه وسطوته بلسانه ، وقد أقام بالبصرة زمنًا طويلاً ، وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة ، منهم ابو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي ، وابو الحسن علي بن هرون الزنجاني وابو احمد المهرجاني والعوقي وغيرهم فصحبهم وخدمهم .

« وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله ، وذلك انهم قالوا : ان الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة في جميع اجزاء الفلسفة علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرسًا وسموها « رسائل اخوان الصفا » وكتموا فيها اسماءهم ، وبثوها في الوراقين ، ووهبوها للناس ، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة والطرق المموهة .

« قال الوزير : فهل رأيتَ هذه الرسائل ؟ قلت : قد رأيت جملة منها ، وهي مبثوثة من كل فن بلا اشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنايات ، وتلفيقات وتزليقات ، وحملت عدة منها الى شيخنا ابي سليمان المنطقي السجستاني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

محمد بن بهرام ، وعرضتها عليه فنظر فيها أياماً وتبحرها طويلاً ثم ردّها عليّ وقال : تعبوا وما اغنوا ، ونَصِبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا ، وغنّوا وما اطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ، ومشطوا ففلفلوا ، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ، ظنوا انه يمكنهم ان يدسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمقادير والمجسطي وآثار الطبيعة ، والموسيقى الذي هو معرفة النغم والايقاعات والنقرات والأوزان ، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالاضافات والكميات والكيفيات في الشريعة ، وان يربطوا الشريعة في الفلسفة ، وهذا مرام دونه حدد ، وقد تورد على هؤلاء قوم كانوا أحدّ أنياباً ، وأحضر أسباباً ، وأعظم اقداراً ، وأرفع اخطاراً ، واوسع قوى ، واوسع عرا ، فلم يتم لهم ما ارادوا ، ولا بلغوا منه ما أملوه ، وحصلوا على لوثات قبيحة ، ولطخات واضحة موحشة ، وعواقب مخزية ، فقال له البخاري بن العباس : ولِمَ ذلك أيها الشيخ ؟ فقال ان الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل بوساطة السفير بينه وبين الخلق ، من طريق الوحي وباب المناجاة ، وشهادة الآيات ، وظهور المعجزات ، وفي أثنائها ما لا سبيل الى البحث عنه والغوص فيه ، ولا بد من التسليم المدعو اليه ، والمنبّه عليه ، وهناك يسقط « لِمَ » ويبطل « كيف » ويزول « هلا » ويذهب « لو وليت » في الريح ...»

لا جرم ان القاريء سيدرك مما نقلناه من نماذج أقواله الى اي موطن من مواطن البلاغة بلغ قلم التوحيدي ويقف على دقة معانيه ورقة الفاظه . وها كم نموذجاً آخر مما كتبه لصاحبه الوزير : بسم الله الرحمن الرحيم . أيها الوزير ، جعل الله اقدار دهرك جارية على تحكم آمالك ، ووصل توفيقه بمبالغ مرادك في أقوالك وأفعالك ، ومكنك من نواصي أعدائك ، وثبت اواخي دولتك على ما في نفوس اوليائك . يجب على كل من آتاه الله رأياً ثاقباً ، ونصحاً حاضراً ، وتنبهاً نافعاً ، ان يخدمك متحرياً لرسوخ دعائم المملكة بسياستك وريادتك ، قاضياً بذلك حق الله عليه في تقويتك وحياطتك . واني ارى على بابك جماعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ليست بالكثيرة ـ ولعلها دون العشرة ـ يؤثرون لقاءك والوصول اليك ، لما تجن صدورهم من النصائح النافعة ، والبلاغات المجدية ، والدلالات المفيدة ، ويرون انهم اذا أهلوا لذلك فقد قضوا حقك ، وأدوا ما وجب عليهم من حرمتك ، وبلغوا بذلك مرادهم من تفضلك واصطناعك ، وتقديمك وتكريمك ، والحجاب قد حال بينهم وبينك ، ولكل منهم وسيلة شافعة وخدمة للخيرات جامعة ، منهم ـ وهو اهل الوفاء ـ ذوو كفاية وأمانة ونباهة ولباقة ، ومنهم من يصلح للعمل الجليل ، ولرتق الفتق العظيم ، ومنهم من يُمتع اذا نادم ، ويشكر اذا اصطُنع ، ويبذل المجهود اذا رُفع ، ومنهم من ينظم الدر اذا مدح ، ويضحك الثغر اذا مزح ، ومنهم من قعد به الدهر لسنّه العالية وجلابيبه البالية ، فهو موضع الاجر المذخور ، وناطق بالشكر المنظوم والمنثور ، ومنهم طائفة اخرى قد عكفوا في بيوتهم على ما يَعنيهم من احوال انفسهم ، في تزجية عيشهم ، وعمارة آخرتهم ، وهم مع ذلك من وراء خصاصة مُرة ، ومؤن غليظة وحاجات متوالية ، ولهم العلم والحكمة والبيان والتجربة ، ولو وثقوا بأنهم اذا عرضوا أنفسهم عليك ، وجهزوا ما معهم من الأدب والفضل اليك حظوا منك ، واعتزوا بك ، لحضروا بابك ، وجشموا المشقة اليك ، لكن اليأس قد غلب عليهم ، وضعفت مُنّتهم ، وعكس املهم ، ورأوا ان سفّ التراب ، اخف من الوقوف على الأبواب ، اذا دنوا منها دُفعوا عنها ، فلو لحظت هؤلاء كلهم بفضلك ، وأدنيتهم بسعة ذرعك وكرم خِيمك ، وأصغيت الى مقالتهم بسمعك ، وقابلتهم بملء عينك ، كان في ذلك بقاء للنعمة عليك ، وصيت فاش بذكرك ، وثواب مؤجل في صحيفتك وثناء معجل عند قريبك وبعيدك ، والأيام معروفة بالتقلب ، والليالي ماخضة مما يتعجب منه ذو اللب ، والمجدود من جُدَّ في جَده ، اعني من كان جده في الدنيا موصولاً بحظه من الآخرة ، ولأن يوكل العاقل بالاعتبار بغيره ، خير من ان يوكل غيره بالاعتبار به .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ايها الوزير اصطناع الرجال صناعة قائمة برأسها ، قلَّ من يفي بربِّها ، أو يتأتى لها ، او يعرف حلاوتها ، وهي غير الكتابة التي تتعلق بالبلاغة والحساب . وسمعت ابن سورين يقول : آخر من شاهدنا ممن عرف الاصطناع ، واستحلى الصنائع ، وارتاح للذكر الطيب واهتز للمديح ، وطربَ على نغمة السائل ، واغتنم خلة المحتاج ، وانتهب الكرم انتهاباً ، والتهب في عشق الثناء التهاباً ، ابو محمد المهلبي ، فانه قدم قوماً ونوَّه بهم ، ونبه على فضلهم ، وأحوج الناظرين في أمر الملك اليهم والى كفايتهم ، منهم ابو الفضل العباس بن الحسين ، ومنهم ابن معروف القاضي ، ومنهم ابو عبد الله اليَقْرَني ، ومنهم ابو اسحاق الصابي وابو الخطاب الصابي ، ومنهم احمد الطويل ومنهم ابو العلاء صاعد ، ومنهم ابو احمد بن الهيثم وابن حفص صاحب الديوان وفلان وفلان ، هؤلاء الى غير هؤلاء ، كأبي تمام الزينبي وابي بكر الزهري وابن قريعة وابي حامد المرورزي ، وابي عبد الله البصري وابي سعيد السيرافي ، وابي محمد الفارسي وابن درستويه وابن البقال والسري ومن لا يحصى كثرة من التجار والعدول .

وقال لي ابن سورين : كان ابو محمد يطرب على اصطناع الرجال كما يطرب سامع الغناء على الشبابير (آلة موسيقية) ، ويرتاح كما يرتاح مدير الكأس على العشائر . وقال عنه انه قال : والله لأكونن في دولة الديلم اول من يذكر ان فاتني ان كنت في دولة بني العباس آخر من يذكر اهـ .

هذا أسلوب التوحيدي السهل الممتنع . وشعره قليل وقد قال عن نفسه لست من الشعر والشعراء في شيء .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net